

مختصر ابن كثير

9 - يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم رحيم وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا .

10 - إذ جاءوك من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأ بصار وبلغت القلوب الحناجر وتطnoon بها الطنوون .

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمهم إياهم عام تأليبا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرا من أشراف يهودبني التنصير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر منهم (سلام بن أبي الحقيق) و (سلام بن مشكم) و (كنانة بن الربيع) خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانت فأجاؤهم إلى ذلك ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضا وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقادتهم (أبو سفيان) صخر بن حرب وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق وذلك بإشارة سلمان الفارسي به فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفر وجاء المشركون فنزلوا شرق المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم في أعلى أرض المدينة كما قال الله تعالى : { إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم } وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين وهو نحو من ثلاثة آلاف فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحب الخيالة والرجال أن تصل إليهم وجعل النساء والذراري في آطام المدينة وكانت بنو قريطة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرق المدينة ولهم عهد من النبي صلى الله عليه وسلم وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم (حبي بن أخطب) فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد وما لوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله تبارك وتعالى : { هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا } ومكثوا محاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قريبا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال ثم أرسل الله تعالى على الأحزاب ريح شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم رحيم وجنودا } قال مجاهد : وهي الصبا ويفيد الحديث الشريف : "

نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " .

وقوله تعالى : { وجنودا لم تروها } هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول يابني فلان إلي فيجتمعون إليه فيقول : النجاء لما ألقى الله في قلوبهم من الرعب روى مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان B فقال له رجل : لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا رجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيمة " فلم يحبه منا أحد ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال صلى الله عليه وسلم : " يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم " فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : " ائتي بخبر القوم ولا تذعرهم علي قال فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد قوسه وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تذعرهم علي ولو رميته لأصبه قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها فلم أزل نائما حتى الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قم يا نومان " (أخرجه مسلم في صحيحه) .

وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة قال : ذكر حذيفة B مشاهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكان فعلنا وفعلنا فقال حذيفة : لاتمنوا بذلك لقد رأينا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريطة لليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا وما أنت علينا قد أشد ظلمة ولا أشد ريحنا في أصوات ريحها أمثال المواقع وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه يجعل المتفاقون يستأذنون النبي A ويقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة مما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ويأذن لهم فيتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا حتى أتى علي وما على من جنة العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاور ركبتي قال فأنا A أنا جاث على ركبتي فقال : " من هذا ؟ " فقلت : حذيفة قال : " حذيفة ؟ " فتقاصرت الأرض فقلت : بل يا رسول الله كراهةي أن أقوم فقمت فقال : " إنه كائن في القوم خبر فأتنى بخبر القوم " قال : وأنا من أشد الناس فزعـا .

وأشدهم قرأ قال : فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته " قال : فوالله ما خلق الله تعالى فرعا ولا قرا في جوفي إلا خرج من جوفي بما أجد فيه شيئا قال : فلما وليت قال A : " يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني " قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد

فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول : الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أبا سفيان قيل ذلك فانتزعت سهما من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في صوء النار فذكرت قول رسول A : " لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتيني " قال : فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت المعسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل لا مقام لكم وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا فوا إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشم الريح تضرفهم بها ثم خرجت نحو النبي A فلما انتصفت في الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارسا أو نحو ذلك معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أن إله تعالى كفاه القوم فرجعت إلى رسول A صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل في شملة يصلي فوا ما عدا أن رجعت راجعني القر وجعلت أقرفه فأواما إلى رسول A بيده وهو يصلي فدنت منه فأسبل علي شملة وكان رسول A إذا حزبه أمر صلى فأخبرته خبر القوم وأخبرته أني تركتهم يرحلون وأنزل الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحنا وجندوا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا } (أخرجه الحاكم والبيهقي في دلائل النبوة) ولأبي داود : وكان رسول A إذا حزبه أمر صلى (أخرجه أبو داود في سننه) وقوله تعالى : { إذا جاءكم من فوقكم } أي الأحزاب { ومن أسفل منكم } تقدم عن حذيفة B أنه أنهم بنو قريطة { وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر } أي من شدة الخوف والفزع { وتطنون بما في الطنونا } طن بعض من كان مع رسول A أن الدائرة على المؤمنين وقال محمد بن إسحاق : طن المؤمنون كل طن ونجم النفاق حتى قال (معتب بن قشير) : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلا الغائب وقال الحسن في قوله D : { وتطنون بما في الطنونا } طنون مختلفة طن المنافقون أن محمدا A وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله رسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وعن أبي سعيد B قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول A هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال رسول A : " نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن رواعتنا قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزهم بالريح (أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الإمام أحمد بمثله)